التنافس البريطاني . المصري حول البحرين في القرن التاسع عشر

د . توفيق خلف ياسين السامرائي
قسم التاريخ – كلية التربية / سامراء – جامعة تكريت

المقدمة:

لتاريخ البحرين في القرن التاسع عشر أهمية خاصة . فقد شهدت هذه الجزر ، الغنية بثرواتها الطبيعية وموقعها الستراتيجي بالنسبة للقوى المحلية والاقليمية والدولية ، تنافساً حاداً خلال هذه المرحلة التاريخية ، حيث كانت البحرين مفتاحاً للساحل الغربي للخليج العربي ويتمثل هذا التنافس في النصف الاول من القرن التاسع عشر في التنافس البريطاني – المصري على السواحل الغربية للخليج العربي . وكان الموقف البريطاني رد فعل للتوسع المصري في الجزيرة العربية وامتداداتها الساحلية . واذا كان البريطانيون لم يهتموا بتوسع محمد علي في الجزيرة العربية في المرحلة الاولى ، فان وصوله الى سواحل الخليج العربي قد أثار السلطات البريطانية وجعلها تتخذ سلسلة من الاجراءات لمواجهة هذا الاندفاع المصري المتزايد . البحث الحالي محاولة لتتبع اهمية البحرين وموقعها في التنافس البريطاني – المصري حول الجزيرة العربية ، ونتائج هذا التنافس على المنطقة عموماً والبحرين على نحو خاص . يؤشر المؤرخون وصول قبائل العتوب إلى جزر البحرين في عام ١٧٨٢ بداية للتاريخ الحديث لهذه الجزر ، وذلك لان احدى تلك القبائل وهم آل خليفة حكموها منذ ذلك التاريخ وحتى الوقت الحالي[١] . وقد كان العتوب يشعرون بمدى قوتهم البحرية ، وان في استطاعتهم أن يتحدوا مع القوى البحرية الأخرى ويدافعوا عن جزر البحرين لو قدر لهم السيطرة عليها ، وربما كان عتوب الزبارة آنذاك قد بدأوا يشعرون بالتوسع السعودي ، لذلك اصبح التفكير في السيطرة على البحرين أمراً هاماً ، لا سيما وان السعوديين لا يملكون أسطولاً بحرياً وبهذا يصبح البحر مانعاً قوياً وطبيعياً بينهم وبين السعوديين ، إلى جانب ذلك اهتم العتوب بموقع البحرين التجاري وغناها بمغاصات اللؤلؤ واشجار النخيل والماء العذب ، وكذلك كون البحرين جزيرة فان ذلك يسهل عليهم الدفاع عنها لدرايتهم الواسعة بشؤون البحر[٢] . ووفقاً لهذه السمات تكون البحرين درة للخليج العربي كما يشير احد الباحثين[٣] .

كانت الظاهرة العامة في الخليج العربي قبل بداية القرن التاسع عشر ظاهرة " توازن القوى " بين دويلات المدن التي كانت تظهر وتختفي على شاطئ الخليج العربي بين فترة واخرى ، باشتداد شكيمة احدى القبائل او بضعفها ، وكان آل خليفة وحلفاؤهم قبيل بداية الربع الاخير من القرن الثامن عشر من الزبارة يشكلون بداية توسع احدى " دويلات المدن" وعلى نحو خاص بعد وصولهم الى البحرين[٤] . الا ان بداية القرن التاسع عشر تزامن مع تنامي الدور البريطاني في شؤون الخليج العربي ، الى جانب تنامي دور القوى المحلية والاقليمية في المنطقة . وكان وصول قوات محمد علي باشا (١٨٠٥ –١٨٤٧) والي مصر القوي ، الى الجزيرة العربية قد اثر على وضع القوى المحلية في المنطقة ، الى جانب رد الفعل البريطاني لمواجهة الحملة المصرية . علاوة على ذلك . تعرضت البحرين لتهديدات حكام الساحل العماني ، والتهديدات الفارسية .

الحملة المصرية الأولى (١٨١١–١٨١٩) :

مع مفتتح القرن التاسع عشر ، سيطر سعود بن عبد العزيز على مكة المكرمة في الخامس والعشرين من نيسان عام ١٨٠٣ . وكان سعود قد ارسل رسالة الى السلطان العثماني سليم الثالث يؤكد له فيها منعه للدولة العثمانية من ممارسة اية سيطرة فعلية في شبه الجزيرة العربية . ومما جاء في رسالة سعود :

((. . . قد دخلت مكة في اليوم الرابع من محرم عام ١٢١٨ هـ الموافق ٢٥ أبريل ١٨٠٣ م ، وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ما هناك من أشياء وثنية ، وألغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً ، وثبت الوالي الذي وليته أنت طبقاً للشرع ، فعليك ان تمنع والي دمشق والقاهرة من المجئ بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته))(٥) .

عد السلطان العثماني هذه الرسالة خروجاً على طاعته وان ما جاء فيها تعبير عن تمرد سعود على الدولة(٦) . وبسبب انشغال الدولة العثمانية بالقضاء على عدة تمردات في آن واحد ، وافتقارها الى جيش كبير قادر على القضاء على هذه الحركات الانفصالية المختلفة ، عهد السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ـ١٨٣٩) الى باشوات بغداد ودمشق وجدة القضاء على هذه الحركة ، الا ان هؤلاء فشلوا في القضاء على الوهابيين ، مما اضطر السلطان الى ان يطلب المساعدة من تابعه القوي محمد علي ، والي مصر ، فلبي محمد علي هذا التكليف ، وكان هدفه المباشر السيطرة على التجارة والاستيلاء على البلاد وخيراتها(٧) . وقد اعتقد والي مصر انه اذا قدر له ان يتغلب على السعوديين فسيكون في مقدوره استعادة الموارد المالية بحصوله على قرض من الباب العالي ثم اعفاء باشوية مصر من الخراج السنوي ، الذي كان عليه ان يدفعه الى الإستانة(٨) .

مرت العمليات المصرية في الجزيرة العربية بمرحلتين بين (١٨١١–١٨٣ـــ) ، ابتدأت الاولى سنة ١٨١١ ، عندما عين محمد علي فيها ابنه احمد طوسون بك قائداً عاماً للجيش المتكون من ثمانية الى عشرة آلاف مقاتل . احتل المصريون ميناء ينبع واتخذوه قاعدة لعملياتهم العسكرية ، ومني المصريون بخسائر كبيرة بسبب طبيعة المنطقة والمقاومة السعودية الوهابية . وعلى الرغم من صعوبة التحرك في الجزيرة العربية ، استولى المصريون على المدينة في تشرين الثاني ١٨١٢ ، ومكة والطائف وجدة في كانون الثاني من السنة ذاتها ، فسيطرت القوات المصرية على الحجاز مما مهد لوصول محمد علي باشا بنفسه(٩) .

وصل محمد علي باشا على رأس قوة كبيرة في ايلول ١٨١٣ ، فاخذ يوسع العمليات العسكرية الى الجنوب من الحجاز وعسير . وفي سنة ١٨١٥ ، انزلت القوات المصرية خسائر فادحة بالسعوديين ، غادر بعدها محمد علي الجزيرة العربية عائداً الى مصر دون احتلال اليمن . وفي الوقت الذي حققت فيه القوات المصرية انتصارات كبيرة في الجنوب ، كانت قوات طوسون بيك في الشمال تعاني من مصاعب كبيرة دفعته الى عقد الصلح مع السعوديين ، فبقيت نجد والقصيم بيد آل سعود ، واصبح الحجاز بيد القوات المصرية ، وتعهد الامير عبد الله بتبعيته الى السلطان العثماني ، شرط ان يخضع للوالي المصري في المدينة . وبذلك انتهت المرحلة الاولى من هذه الحرب بعد ترك حاميات مصرية في الحجاز ، وغادر طوسون بيك الى مصر(١٠) .

في عام ١٨١٦ ، تواصلت الحملة المصرية لعدم التزام الامير عبد الله ببنود المعاهدة المفروضة على الوهابيين ، فأرسل محمد علي جيشاً مصرياً بقيادة ابراهيم باشا ، الابن الاكبر لباشا مصر . استولى المصريون سنة ١٨١٧ على الرس وبريدة وعنيزة ، واخترقوا في بدايات سنة ١٨١٨ نجد ، واحتلوا الدرعية بعد حصارها في ١٥ ايلول ١٨١٨ . استسلم الامير

عبد الله وارسل للقاهرة ثم الى اسطنبول ، فقطع رأسه في كانون الاول ١٨١٨ ، وتلا ذلك اخضاع القوات المصرية للقطيف والبحرين [١١] . وهكذا وصلت القوات المصرية الى الساحل الغربي للخليج العربي .

كان البريطانيون يراقبون تطورات الحملة المصرية ، لا سيما بعد ان وصلت الى الاحساء والقطيف واقتربت جزر البحرين . وكانت بريطانيا مهيأة اكثر من أي وقت مضى لتحقيق اهدافها السياسية في الخليج العربي ، فقد خرجت منتصرة من حروبها مع نابليون بونابرت اثر هزيمته في معركة واترلوا عام ١٨١٥ ، وفي الهند انتهت الاضطرابات التي كانت تهدد الوجود البريطاني ، كذلك استطاع ابراهيم باشا تحطيم القوة السعودية ، مما جعل القواسم بدون حليف قوي يساندهم . وحاولت بريطانيا استغلال الظروف لصالحها بايجاد تعاون مع قوات محمد علي منذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها اقدام المصريين الاحساء واصبحوا يطلون من قاعدتهم الجديدة على بلدان الخليج العربي . ووفقا لذلك لم ينظر البريطانيون الى سقوط الدرعية بيد محمد علي بعين الارتياح [١٢] . وهكذا كان رد الفعل البريطاني على وصول قوات محمد علي الى البحرين بمحاولة انهاكه بمزيد من العمليات ضد السعوديين ، الى جانب ارسال عدد من المبعوثين [١٣] . لمعرفة نواياه حول الخليج العربي عموماً والبحرين على نحو خاص .

ان بريطانيا كانت مهتمة بالتعاون مع محمد علي منذ اللحظة الاولى التي وطئت اقدام المصريين الاحساء لانها ادركت ان محمد علي لو تمركز في الاحساء وتطلع الى بلدان الخليج العربي ، فمعنى ذلك انه اوجد قواعد ثابتة في الخليج يصعب اقتلاعها في المراحل اللاحقة فحاولت السلطات البريطانية في الخليج معرفة النوايا الحقيقية لحاكم مصر القوى تجاه سواحل الخليج العربي .

ويمكننا القول ان انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية عام ١٨١٩ كان لصالح بريطانيا ، اذ اخذت توطد نفوذها ووجودها على ساحل الخليج العربي دون منافس . ثم بدأت بشن حملتها ضد القواسم في اواخر عام ١٨١٩ ، فأخضعت موانئ الساحل العماني والساحل الغربي للخليج العربي [١٤] . وبذلك يكون محمد علي قد خدم في حملته الاولى ، وبدون قصد ، السياسة البريطانية ، بقضائه على قوة السعوديين الذين كانوا حليفاً قوياً للقواسم في الساحل العماني .وفيما يتعلق بالموقف البريطاني من البحرين ، فقد اتبع البريطانيون سياسة محايدة معها وامتنعوا عن اتخاذ اية اجراءات ترمي الى احتلال البحرين . لكنهم في الوقت ذاته هددوا باستخدام القوة ضد السفن التجارية البحرينية اذا تعرضت للسفن البريطانية [١٥] . وكان لحملة محمد علي الاولى في الجزيرة العربية اثار مؤثرة على منطقة الخليج العربي ، اذ اسهم تدمير القوة السعودية الى الانفراد البريطاني بالساحل العماني وسواحل الخليج العربي . ثم ربطت زعماء المنطقة (بمعاهدة السلم العامة) في الثامن من كانون الثاني من عام ١٨٢٠ ، التي وقعها شيوخ رأس الخيمة وابو ظبي ودبي والشارقة . وفي الخامس من شباط من العام ذاته ، وقعها السيد (عبد الجليل الطباطبائي) نيابة عن شيخ البحرين ، ثم وقعها شيخا عمان وام القوين في ١٥ اذار [١٦] هكذا انضمت البحرين الى معاهدة ١٨٢٠ مع بريطانيا ، بعد ان تاكد آل خليفة من تهديد بريطانيا رسمياً لهم ، وشعروا بانهم في خطر مما يحيكه سلطان مسقط وشاه فارس ضدهم [١٧] .

وفي ما يخص البحرين ، يتضح ان بريطانيا لم تبلور مطامعها تجاه المنطقة في هذه المرحلة التاريخية . فلم تكن البحرين متورطة في ما يسمى بالقرصنة في الخليج العربي ، كما انها لم تكن ذات جاذبية خاصة لاقامة قاعدة على ارضها في مستهل القرن التاسع عشر [١٨] . هذا الموقف البريطاني غير الحازم جعل محمد علي باشا يتوسع في ضم المزيد من اراضي الجزيرة العربية والساحل الغربي للخليج العربي.

الحملة المصرية الثانية (١٨٣٤-١٨٣٩):

أتاح توقيع اتفاقية كوتاهية بين محمد علي والسلطان العثماني محمود الثاني في نيسان ١٨٣٣ الفرصة لسحب عدد كبير من القوات المصرية في اسيا الصغرى وتوجيهها الى شبه الجزيرة العربية . الا ان تحقيق هذا الهدف كان يشكل خطرا كبيرا على بريطانيا لان محاولة السيطرة على جنوب وشرقي الجزيرة العربية كانت تؤدي الى التحكم في طريق البحر الاحمر والخليج العربي (١٩) .

وبعد خمس سنوات ، عادت القوات المصرية الى شبه الجزيرة العربية في عام ١٨٣٨ ، الا ان الموقف البريطاني اختلف في هذه المرحلة . فبعد الحملة البريطانية ضد القواسم ، اتسع نفوذها ووجودها في بلدان الخليج العربي ، وعقدت سلسلة في المعاهدات التي الزمت شيوخ امارات الخليج برفع اعلام خاصة على سفنهم . واصبح محمد علي يمثل في نظرها قوة وطنية صامدة في الشرق تسيطر على طريق البحر الاحمر ، فمن الخطورة على مصالحها ان يمتد نفوذه الى الفرع الثاني الذي يصل المحيط الهندي واوربا (٢٠) .

وفي الوقت ذاته ، استعاد السعوديين سلطتهم بعد انسحاب القوات المصرية عام ١٨١٩ ، واستطاع تركي بن عبد الله الوصول الى الحكم ولم يقطع علاقاته مع المصريين ، بل اعترف بسلطة اسمية لهم تتمثل في دفعة الجزية السنوية . وقد استطاع هزيمة شيوخ الاحساء من ال عريعر عام ١٨٣٠ ، واتخذ منها قاعدة للتوسع في الخليج العربي ، وخاصة البحرين . لم ترق هذه التطورات في الجزيرة العربية لمحمد علي ، لكنه لم يستطيع توجيه حملة للمنطقة ، ويرجع ذلك الى الظروف الصعبة التي كان يمر بها في بلاد الشام . الا انه بعد تعيينه باشا على سوريا وعدن عام ١٨٣٣ ، واطمان الى ضم بلاد الشام الى ممتلكاته ، عزز نفوذه في الجزيرة العربية وبدأ يعمل هذه المرة لحسابه وليس لحساب الباب العالي ، وذلك لتحقيق مطامحه البعيدة في الجزيرة العربية وعمان ، وباتت الفرصة متاحة له عندما اعتلى الامير فيصل بن تركي عرش السعودية بعد مقتل ابيه في الرياض ، فاطلق محمد علي سراح الامير خالد بن سعود ، الذي اسره عند سقوط الدرعية عام ١٨١٨ ، واخذ يعده للقضاء على الامير السعودي فيصل (٢١) .

بدأ الامير فيصل بمحاربة خصومه : فرع العماير من بني خالد ، وحليفهم الشيخ عبد الله بن احمد ، حاكم البحرين ، وابنه مبارك امير الدمام . وكان الشيخ عبد الله يمنع فيصل من الوصول الى المدن الساحلية ، لذلك توجه فيصل الى القطيف عن طريق مسقط . وفي الوقت ذاته قطع الامير فيصل الجزية التي كان والده يدفعها لمحمد علي ، الى جانب شكوك محمد علي بدعم فيصل لحركة التمرد في عسير . وهكذا كانت كل من بريطانيا ومصر على السواء يسعيان لازالة الوجود السعودي من الاحساء واقاليم الخليج العربي الاخرى (٢٢) .

حاول الامير فيصل التفاهم مع المصريين الا ان محمد علي ارسل القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا ، يرافقه الامير خالد في اوائل عام ١٨٣٧ . وقد تمت هزيمة قوات فيصل الذي انسحب الى الاحساء ، ودخل خالد الرياض معلنا نفسه اماما . ولم تجد محاولات فيصل للحصول على دعم والي بغداد علي رضا ، ودعم السلطات البريطانية حيث لم يتلق غير الوعود بالمساعدة . وبعد معارك متواصلة بين قوات خورشيد وقوات فيصل استسلم الاخير في الدلم ، بعد ان تعهد له خورشيد بالمحافظة على ارواح سكان الدلم (٢٣) .

ويبدو من تحركات القوات المصرية ان محمد علي لم يكن يهدف الى اخضاع الامير فيصل فقط ، وانا كانت له اهداف اخرى في الخليج العربي والعراق . فكان من الطبيعي ان تثير مثل هذه التطورات السلطات البريطانية . وقد اكد هذه الانباء الكابتن كامبل ، قنصل

بريطانيا في القاهرة ، حينما ارسل الى بالمرستون وزير الخارجية رسالة توضح ما كان يدور في الجزيرة العربية الى جانب تحرك ابراهيم باشا نحو القبائل المتاخمة للاراضي السورية – العراقية لاخضاعها [٢٤] .

كان بالمرستون يعتقد ان محمد علي له اطماع توسعية في بناء امبراطورية عربية تضم جميع البلدان التي تتكلم اللغة العربية . وقد جاءت سيطرته على سوريا والحجاز والسودان لتؤكد مثل هذا الهدف . وهكذا ، يمكن ان يسيطر اذا نفذ ما تبقى من خطته على البحر الاحمر والخليج العربي . لذلك اراد بالمرستون ان يحد من تقدم القادة المصريين في الجزيرة العربية وان يجعل محمد علي مجرد تابع للباب العالي [٢٥] .

ولمواجهة التوسع المصري ، فكر بالمرستون باحتلال البحرين لاهمية موقعها ومواجهة أي عدوان مصري ، وخاصة اذا تم الانسحاب البريطاني من جزيرة خرج على الساحل الفارسي ، الا ان هذه الفكرة استبعدت لتكاليفها الباهضة ، وصعوبة المناخ في البحرين [٢٦] .

وفي الوقت ذاته ، وجه بالمرستون تحذيراً الى محمد علي عن طريق القنصل العام البريطاني في مصر ، اللورد كامبل ، يحذره من مواصلة التوسع المصري نحو الخليج العربي ، فاكد محمد علي للقنصل البريطاني العام بانه لم يفكر مطلقا في تحقيق مثل هذا المشروع ، وانه لايفكر في التوسع خارج نطاق البحر الاحمر ، وانكر تفكيره في السيطرة على بلدان الخليج العربي . ويؤكد الدكتور فائق طهبوب ان رد محمد علي فيه من الذكاء والحذر الشيء الكثير ، فاخضاعه للسعوديين يعني اخضاع جميع البلاد التابعة لهم وهذا يوصله الى شواطئ الخليج العربي والبحرين دون ان يصرح بذلك [٢٧] .

لقد نجح محمد علي في تجنب التدخل البريطاني في المرحلة الاولى من توسعه ، الا ان الشكوك البريطانية اتسعت عندما بدأت الحكومة البريطانية تراقب تحركات القوات المصرية في اليمن وسواحل الخليج العربي بقيادة خورشيد باشا ، وكان بالمرستون يخشى من قيام محمد علي بغزو العراق [٢٨] .

قدم رؤساء القبائل في الاحساء فروض الطاعة والولاء لخورشيد باشا ، ولم يتغيب سوى والي الاحساء السابق عمر بن عفيصان الذي التجأ الى البحرين ، وطلب من الشيخ عبد الله بن احمد امير البحرين اعطاه قلعة الدمام لمقاومة الاحتلال المصري ، ومنحه الحماية . الا ان الشيخ عبد الله بن احمد رفض طلبه الاول ، ووافق على طلبه الثاني ، بحجة انه لا يستطيع ان يبت بهذا الامر دون موافقة بلاد فارس . وقد عين خورشيد والياً على الاحساء هو محمد بن احمد السديري ، وكان موفقاً في هذا الاختيار ، لانه طمأن السكان من عدم قيام القوات المصرية بارتكاب أخطاء ضد اهالي المنطقة ، مثلما حدث في الحملة الاولى للاحساء عام ١٨١٩ ، كما ارسل خورشيد نائبا عنه هو محمد افندي ليضمن سيطرة الحكم المصري المباشر في الاحساء وبلدان الخليج العربي الاخرى [٢٩] .

تأكد للبريطانيين بعد احتلال الاحساء ان البحرين ستكون خطوة خورشيد القادمة . وقد ارسل هبهاوس حاكم بومباي الى اوكلاند ، رسالة يؤكد فيها " اما بالنسبة للبحرين فيجب ان نكون حذرين جداً من اية محاولة يقوم بها المصريون لاحتلال تلك الجزيرة بالقوة وذلك بحصولنا على حق واضح وصريح باحتلالها بانفسنا او بمساعدة سلطان مسقط بمشروع مشابه ، وتاتي اهمية البحرين عند استئناف العلاقات مع فارس واخلائنا جزيرة خرج [٣٠] .

وبدأت بريطانيا باتخاذ اجراءات فعلية لافشال مواصلاته البحرية بين جدة والخليج العربي ، الى جانب التتبع الدقيق لتحركات قواته في الجزيرة العربية وتكليف المعتمدين بالاتصال بشيوخ المنطقة وتشجيعهم على الصمود وخاصة بشيخ البحرين ، على ان لا يقعوا في صدام حقيقي مع قوات محمد علي [٣١] .

حاول خورشيد عقد معاهدة صلح مع شيخ البحرين عبد الله [٣٢] ، يدفع بموجبها الزكاة التي كان يدفعها سابقا لآل سعود ، وتسليم عمر بن عفيصان والي الاحساء السابق مع امواله ، مع تسليم جزيرة تاروت وقلعة الدمام . وقد ارسل محمد افندي النائب المصري في الاحساء لتنفيذ هذا الصلح ، الا ان شيخ البحرين رفض التعاون مع المصريين . حاول خورشيد برسالة ارسلها الى محمد علي تاكيد اهمية البحرين وضرورة احتلالها بعد رفض شيخها التعاون مع المصريين بدعم من حكومة بغداد والسلطات البريطانية .[٣٣] .

بعد فشل الشيخ عبد الله بالحصول على مساعدة بريطانيا ، او حكومة بغداد او حاكم فارس ، بدأ التفاوض مع المصريين حول نوع العلاقة التي سترتبط البحرين بمصر . وبعد مفاوضات بين شيخ البحرين عبد الله بن احمد ومحمد افندي نائب خورشيد على الاحساء توصل الجانبان الى موافقة الشيخ عبد الله على عقد اتفاقية بينهما وربط بلاده بالسياسة المصرية ، بعد حصوله على ضمانات مصرية بحسن المعاملة وقد تم عقد الاتفاقية بين الجانبين في عام ١٨٣٩ [٣٤] .

اثارت هذه الاتفاقية غضب السلطات البريطانية التي حاولت جعل الشيخ عبد الله يرجع عن اتفاقيته مع المصريين ، الا ان الشيخ عبد الله رفض التهديدات البريطانية ، واصر على الالتزام بتعهداته . ويبدو ان الشيخ عبد الله اراد التخلص من البريطانيين الذين كانوا على علاقات طيبة مع اعدائه ، حاكم مسقط وشيخ ابو ظبي اللذين كانا يطمعان في السيطرة على البحرين منذ زمن بعيد [٣٥] . وهكذا فشل المبعوث البريطاني هنيل الذي ارسلته السلطات البريطانية في الهند في تحقيق نتائج مجدية مع شيخ البحرين ، لموقفه الصلب ضد التهديدات البريطانية [٣٦] .

ادرك محمد علي بان السيطرة على البحرين ستسبب له مشاكل كبيرة ويعطي الحجة للسلطات البريطانية لمواجهته ، لا سيما وانه كان يوزع قواته على جبهات متعددة في بلاد الشام والسودان واليونان . فارسل رسالة الى خورشيد يحثه فيها بعدم التدخل في شؤون البحرين وان يترك الشيخ عبد الله بن احمد مستقلا يتدبر امورها بنفسه . وقد استغل البريطانيون هذا القرار لمحمد علي للضغط على شيخ البحرين لرفض التبعية المصرية . وعندما استوضح خورشيد باشا عن موقف شيخ البحرين ، وهل انه لا زال على العهد ، جاءه الرد مبينا الموقف المبدئي والشجاع للشيخ عبد الله بن احمد : "مادمت على قيد الحياة فاني لا استسلم للإنجليز ، وانهم منذ ثلاثين سنة وهم يحتالون علينا وسأبذل جميع مالي وقوتي . اني في الثمانين وقد بلغت اخر العمر فلان نموت جميعا اولى من ان نكون رعية الكفار ، وافضل شيء واشرفه الا نرى ذلك اليوم ، فارجو من الباشا ان لا يمنع عرب نجد عن المجئ عندنا بل ارجوه ان يسهل مجيئهم [٣٧] .

وتحت تاثير الضغوط البريطانية ، اصدر محمد علي ارادة رقم (٢١) بتاريخ العاشر من ايلول عام ١٨٣٩ نقضي بتعليق مهمة خورشيد واغلاق باب المصروفات المفتوحة لحملة نجد ، وطلب الى خورشيد الرجوع الى القاهرة ، وان يترك امر نجد والاحساء لخالد بن سعود وان يحاول بكل جهده وبصورة ملائمة ان تبقى جزر البحرين وغيرها من الجهات التي كانت خاضعة لآل سعود سابقا تابعة لخالد بن سعود . فاضطر خورشيد باشا الى الامتثال لاوامر والده . وفي هذه الفترة قتل محمد افندي حاكم الاحساء ، والساعد الايمن لخورشيد [٣٨] . فتبدد الحلم المصري باخضاع الجزيرة العربية والخليج العربي لحكم محمد علي .

حاولت بريطانيا التلويح للسيد سعيد ، سلطان مسقط باحتلال البحرين ، الا ان الاخير طلب مساعدات بريطانية كبيرة لتحقيق ذلك ، مما افشل الخطة البريطانية وهذا دليل على ان قوة البحرين البحرية والبرية في ذلك الوقت كانت كبيرة وقوية ، الى جانب تخوف السيد سعيد من انتقام خورشيد [٣٩] .

ادى انسحاب القوات المصرية الى اضطرابات سياسية واقتصادية في البحرين ، وقد اسهمت السلطات البريطانية في تعميق الخلافات الاسرية ، لا سيما تشجيعها لحفيد شقشق شيخ البحرين الشيخ محمد بن خليفة [٤٠] ، الذي كان يطمع في الحكم ويتودد للسلطات البريطانية والى اهالي قطر ليبني له جسراً يوصله الى الحكم [٤١] . وقد ادت هذه التطورات الى الاصطدام بين الشيخ عبد الله والشيخ محمد بن خليفة ، الا ان الشيخ عبد الله استطاع الانتصار على الامير الذي توجه الى قطر ثم الاحساء والرياض طالبا المساعدة السعودية ، الا ان الامير خالد بن سعود رفض تقديم المساعدة [٤٢] .

حاول الشيخ عبد الله استرضاء بريطانيا للتدخل في حل المشكلة بعد ان واصل محمد بن خليفة التعاون مع بعض المتذمرين في داخل البحرين وخارجها لعزل الشيخ عبد الله . وبتعاون محمد بن خليفة مع شقيقه في البحرين علي بن خليفة وعيسى بن طريف ، وبشير بن رحمه رئيس قبيلة الجلاهمة استطاع الانتصار على الشيخ عبد الله ، الذي استسلم لاعدائه في نيسان ١٨٤٣ وقد تمت هذه الخطوات بمباركة من السلطات البريطانية ، والامير السعودي [٤٣] .

يتضح مما سبق ان البريطانيين لم يكونوا يعيروا للبحرين اهمية كبيرة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، الا ان وصول القوات المصرية الى الجزيرة العربية وامتدادها الى الاحساء ومحاولتهم السيطرة على سواحل الخليج العربي دفعهم الى اعادة النظر في سياستهم في المنطقة . واذا كان رد الفعل البريطاني لم يتضح على نحو بين في الحملة المصرية الاولى (١٨١١-١٨١٩) ، بسبب الجبهات الواسعة لمحمد علي واضطره لسحب قواته من الجزيرة العربية ، فان رد الفعل البريطاني قد تنامى على نحو واسع في حملته الثانية (١٨٣٤-١٨٣٩) ، لا سيما وان خورشيد باشا قد نجح في عقد اتفاقية صلح مع شيخ البحرين تضمنت تبعيته وتعاونه مع السلطات المصرية وهكذا اتسع الدور البريطاني في الخليج العربي عموماً ، والبحرين على نحو خاص لمواجهة التوسع المصري ، وجعل شيخ البحرين يتخلى عن اتفاقيته مع المصريين ، الا ان الشيخ عبد الله اثبت موقفاً وطنياً مهماً يتمثل بتمسكه باتفاقه مع المصريين . وقد تبين انه كان يتحين الفرصة للتخلص من الهيمنة البريطانية على شؤون الخليج العربي ، الا ان خذلان السلطات المصرية له بانسحابهم المفاجئ بعد التهديدات البريطانية [٤٤] ، ادى الى وقوع الشيخ عبد الله في وضع حرج للغاية وجعله في مواجهة حقيقية مع البريطانيين .

ونستطيع ان نؤكد ان موقف شيخ البحرين يتسم بالشجاعة والقدرة على الالتزام بتعهداته ، على الرغم من امكانياته العسكرية المحدودة والتهديد البريطاني . واخيراً ، فان احتدام التنافس البريطاني المصري بشأن البحرين غالبية النصف الاول من القرن التاسع عشر يؤكد الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية والعسكرية للبحرين حتى قبل اكتشاف النفط فيها .

الهوامش والتعليقات:

١. د. محمد الرميحي ، قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين ١٩٢٠-١٩٧٠ ، الكويت ١٩٧٦ ، ص١٣ .
٢. د. فائق حمدي طهبوب ، تاريخ البحرين السياسي ١٧٨٣-١٨٧٠ ، الكويت ، ١٩٨٣ ،ص٤٨ ؛ محمود بهجت سنان ، البحرين درة الخليج العربي ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص١١٨.
٣. في عام ١٧٨٢ ، استطاع الشيخ احمد الخليفة ، ان يؤسس حكم الاسرة في البحرين . للتفاصيل ينظر :
William Spencer , The Middle East 6 th ed ., Connecticut , 1996 , P 43
٤. د. محمد الرميحي ، المصدر السابق ، ص١٣ .
٥. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ٨٧ .
٦. المصدر نفسه .
٧. محمود عبد الواحد محمود ونايف محمد حسن ، الدولة العثمانية بين الميول الانفصالية ومحاولات الحكم المركزي ١٨٠٨-١٨٣٩ ، مجلة دراسات في التاريخ والاثار ، العدد ٧ ، ٢٠٠١ ، ص١٠٣ .
٨. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص٨٧ .
٩. سيار كوكب الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ ، الموصل ١٩٩٠ ، ص ص٢٧٢-٢٧٣ .
١٠. فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٧١ ، ص ص١٠٤ -١٠٦ .
١١. ابراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦ ، الموصل ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٥٤-١٥٥ .
١٢. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص ص ٩٠-٩١ ؛ سامي صالح محمد صياد ، الموقف البريطاني من سياسة محمد علي باشا في اليونان وبلاد الشام ١٨٢١-١٨٤١ ، رساة ماجستير غير منشورة ، جامعة تكريت – كلية التربية ، ٢٠٠١ ، ص ص٢٥ -٢٦ .
١٣. ارسلت بريطانيا روبرت تيلر ، مساعد الوكيل السياسي البريطاني في بغداد وطلبت منه تقديم تقرير عن قلاع وتحصينات القبائل العربية وارسلت ايضاً الكابتن فورستر سادلر الى ابراهيم باشا في ١٨ حزيران ١٨١٩ لمعرفة نواياه التوسعية في الخليج العربي . للتفاصيل ينظر : د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
١٤. المصدر نفسه ، ص ص ٩٢ – ٩٣ .
١٥. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص ص ٩٣-٩٤ ؛ د. صالح العابد وآخرون ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، البصرة ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٠٦-١٠٧ .
١٦. المصدر نفسه ، ص ٩٥ .
١٧. المصدر نفسه ، ص٩٦ .
١٨. د. محمد الرميحي ، المصدر السابق ، ص٢٦ .
١٩. د. فائق حمدي طيهوب ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
٢٠. المصدر نفسه .
٢١. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص ص ١٧٢-١٧٣ .

٢٢. المصدر نفسه ، ص ١٧٤–١٧٥ .
٢٣. المصدر نفسه ، ص ١٧٦–١٧٩ .
٢٤. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص ١٧٩–١٨٠ .
٢٥. المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .
26. J . B . Kelly , Britain and the Gulf , London , 1965 , P P . 337-338
محمد الرميحي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .
٢٧. د. فائق حمدي طهيوب ، المصدر السابق ، ص ١٨٠–١٨١ .
٢٨. المصدر نفسه ، ص ١٨١ ؛ قدري قلعجي ، الخيج العربي ، بيــروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٥٤ .
٢٩. عثمان بن عبد الله بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجــد ، ج٢ ، مكتبــة الريــاض الحديثة ، الرياض ، د . ت ، ص ٨٥ .
30. Kelly ,O P . cit . , PP. 335-336 .
31. Ibid . , 311 .
٣٢. ولي الحكم بعد وفاة اخيه الشيخ سلمان عام ١٨٢٠ واستمر حكمه حتى عام ١٨٤٣ للتفاصيل ينظر : محمد بهجت سنان ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ –١٣٤ .
٣٣. د. فائق حمدي طهيوب ، المصدر السابق ، ص ١٨٦–١٨٧ .
34. Abbas Faroughy , The Bahrein Islands (750-1950) , New York , 1951 , P . 82 .
٣٥. د. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص٢٠٣ .
٣٦. مقتبس من : المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .
٣٧. ج ج لوريمر ، دليل الخليج ، ترجمة ديوان حاكم مصر ، مصر ، ج٣ ، ص١٤٤١ .
٣٨. د. فائق حمدي طهيوب ، المصدر السابق ، ص٢٠٩ .
٣٩. المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .
٤٠. تولى الحكم عام ١٨٤٣ ، وقد استولى على الحكم من عمه الشيخ عبــد الله واســتمر حكمه حتى سنة ١٨٦٨ . للتفاصيل : محمد بهجت سنان ، المصدر الــسابق ، ص ص ١٣٤–١٣٩ .
٤١. فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص٢١٢ .
٤٢. ان بشر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١١٦ .
٤٣. لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٣١٧ .
٤٤. جاء انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي بعد عقــد معاهدة لندن في عام ١٨٤٠ جزءا من تحجيم سلطات محمد علي واقتصارها على مصر حصرا ، بعد انسحاب قواته من اليونان وبلاد الشام والسودان .
٤٥. للتفاصيل ينظر :سامي صالح محمد صياد ، المصدر السابق ، ص ص ١٣٢–١٤٥ .